

# الرسم بالنسج

ورغم التقلب المستمر الذي يشهده قطاع الأزياء الراقية، يبقى فن تصميم الحرير الإيطالي العصب الثابت الذي لا تزعجه اتجاهات الموضة ولا تخضعه الأزمات الاقتصادية



**قبل** أن تبلغ صناعة الحرير أراضي إيطاليا لتجعل منها موطناً للأزياء المترفة ومحوراً لفن تصميم الأقمشة الفاخرة، بدأت عاصمة الحرير الإيطالي، كومو، رحلتها في عالم النسج متواضعة انطلاقاً من كونها مركزاً لنسج الصوف وغزله في القرن الثاني عشر، قبل أن تدفعها منافسة دول أوروبا الشمالية نحو صناعة الحرير. ومع حلول القرن السادس عشر خطلت المدينة أولى خطاها في هذا المجال لتنسج أول خيوط صناعة الحرير الإيطالي وتغيّر الوجه التجاري للمنطقة بالكامل، حيث غدت اليوم مركزاً محورياً لتصميم الحرير يقصده عمالقة دور الأزياء الراقية مثل ديور وكنزو ولا كروا ونظراتهم، للحصول على أروع الرسوم والنقوش وأكثرها تقيّداً وفخامة. لكن بلوغ مرتبة الصدارة في فن تصميم الحرير لم يكن خالياً من العثرات، إذ واجهت كومو تحديات لا تحصى عبر القرون جعلتها تخرج من الامتحان قادرة على التأقلم مع متغيرات كل عصر ومواكبة متطلباته. فبعد أن تخطّت مرحلة الضرائب الباهظة التي فرضها عليها الحكام الإسبان في القرن السادس عشر، ونجت من براثن الحربين العالميتين وفترة الكساد الكبير، واصلت تطوّرها لتصبح أبرز مركز لصناعة الحرير في الغرب. واليوم، تخضع عاصمة الحرير الإيطالي لاختبار جديد يتمثّل بالمنافسة الصينية، ما أدّى إلى إعادة بلورة دورها في هذا القطاع واتخاذها منحىً متخصصاً. وهذا ما تؤكده كلاوديا بارتيساغي من متحف الحرير في كومو، إذ تقول: "انتقلت كومو من إنتاج الحرير الخام إلى استيراده من الصين ومناطق أخرى حيث يتوفّر بكلفة منخفضة، لكنها لا تزال تحتفظ بمكانة رفيعة وسمعة عالمية الشهرة في مجال النسج والصبغ والطباعة والتصميم. فقد توارث أبنائها خبرة الحرفيين الذين تطلّب عملهم صناعة قالب خشبي منفرد لكل لون من الألوان المطلوب طباعتها". واليوم، لا تزال كومو تخرّج طلاب فن تصميم الأقمشة الذين يقصدونها من حول العالم سعياً وراء التمرّس في هذا الفن الراقى الذي يتطلّب خمس سنوات من الدراسة للتخصّص في قسم النسج أو التصميم أو غير ذلك. إلى جانب خبرة الحرفيين الواسعة ورؤيتهم الثقافية لجمال التصميم، تميّزوا كذلك بالمرونة والانفتاح على التقنيات الجديدة. ففي مطلع القرن التاسع عشر بادر اختصاصيو الحرير لاعتماد أنوال الجكار التي تستخدم مجموعة متتالية من البطاقات المثقوبة تشبه في وظيفتها أولى برامج الكمبيوتر. وكان لهذه الخطوة وما تلاها من تطورات ميكانيكية وإبداعية أثر كبير في تسهيل عملية نسج الحرير والارتقاء بتصميمه إلى آفاق جديدة. فمع حلول الثمانينات من القرن الماضي، ظهرت وسائل طباعة حديثة، كالطباعة النافثة للحبر، التي أتاحت تداخل عشرات الألوان في النقش الواحد، كما برزت أساليب حديثة لثني الحرير وإضافة تموجات فريدة عليه وتطويعه ليأخذ أشكالاً مميزة يضاهي كل منها الآخر إبداعاً.

"إن شعار 'صنع في إيطاليا' يشكّل العلامة الفارقة في هذا المجال، وقد أصبحت هذه العبارة مصدر فخر كبير لنا"

واليوم باتت كبرى دور الأزياء تعمل بشكل وثيق مع مصممي الحرير الإيطاليين لابتكار أساليب نسج خاصة بها، وتحرص كل الحرص على التفرّد بها من خلال شهادات براءة الاختراع. في عصر العولمة والانفتاح التجاري الذي يعايشه الجيل الجديد من فنانين تصميم الحرير، يتبادر إلى الأذهان السؤال التالي: أين يكمن سر تميّز تصميم الحرير الإيطالي عن الدول المنافسة له، التي تجاريه تقدماً من الناحية التقنية؟ تلخّص أوكسانا بوريسوفا من شركة مانتيرو الإيطالية الرائدة في تصميم النقوش الحريرية للأكسسوارات جوهر الموضوع بعبارة واحدة، إذ تقول: "إن شعار 'صنع في إيطاليا' يشكّل العلامة الفارقة في هذا المجال، وقد أصبحت هذه العبارة مصدر فخر كبير لنا. إن كبرى دور الأزياء تختار التعامل معنا لأنها تضع الجودة في مقدمة أولوياتها". لا تخفي بوريسوفا تأثر الشركة بالأزمة الاقتصادية من جهة، ومنافسة الدول المنتجة للحرير بكلفة منخفضة من جهة أخرى. ورغم تقلّص عدد مصممي الشركة من ١٢٠٠ موظف قبل خمسة أعوام إلى ٥٠ موظفاً اليوم، إلا أن خبرة الشركة الواسعة وحرصها على الجودة يشكّلان الجاذب الرئيسي لأبرز مصممي الأزياء، مثل دار يانفراونكو فيريري التي مازالت متمسكة بشراكها مع مانتيرو منذ ربع قرن. وتشرح بوريسوفا أن أحد أسرار نجاح مصممي الشركة يكمن ببراعتهم في ترجمة رؤيا دور الأزياء، فتقول: "منذ ثلاثة أعوام، قدم إلينا لا كروا برسوم لوشم بسيط وطلب منا إبداع خط جديد يستند عليه، وقد يأتينا غيره ببرعم زهرة ويطلب تصميماً منمّقا من وجهه. ومن جهة أخرى، فإن أسلوب الطباعة يلعب دوراً مهماً في تنفيذ التصميم المنشود، وعلى سبيل المثال، لا تزال دار شانيل تتطلب رسم النقوش يدوياً في حين تؤثر دار غوتشي الطباعة الرقمية".

ولعل ما يزيد الأمور تعقيداً لمصممي الحرير أن دور الأزياء تخطط قديماً لكل موسم قبل عامين من حلوله، ورغم ذلك فإن الشركات المرموقة شأن مانتيرو تتمتع بالمؤهلات اللازمة لمجابهة هذه التحديات. ومن جهتها، تقوم مانتيرو بطباعة ١٥٠٠ لون يومياً، وتمتلك أرشيفاً نادراً يحتضن أكثر من ١٢ ألف مجلّد لنقوش الحرير، يعود بعضها لمطلع القرن التاسع عشر، كما أن القائمين على الشركة هم الجيل الرابع من العائلة، الذي يسري شغف تصميم الحرير في عروقه، وهو كنز لا يقدر بثمن. ❁